وبين أن يتحول ويتبدل ويستجيب للمؤثرات فى طواعية دون تمرد أوعصيان. وعلى ذلك فإن الشعر الإسلامى إذا ما عاد إلى الماضى يستوحى تراثه ويستلهم نماذجه ويسترشد بنهجه ونظمه ، وينصت إلى وقع خطاه ، لم يكن ذلك عن قعود أو رغبة فى السير إلى وراء ، أو ازورار عما يحيط به من مظاهر الحياة الجديدة ، وإنما كان فى ذلك كله متفقاً مع طبائع الأشياء دون تنافر أو تضاد ، لأن ذلك التراث قبس فى ضمير الشعر يتحرك على هدى منه ، ولأن تلك الحركة لم تكن أسيرة الماضى ، مغلولة الأيدى ، تصم آذانها عن أصداء الحاضر وتطلعات المستقبل ، وإنما كانت ترى الصور كلها على امتداد البصر أمام الناظرين .. وتمضى فتسجل ما تراه .

إن من الغبن للشعر العربى إذن أن نرى حركته حركة عمياء ، تكتنز الصور القديمة دون أن ترى غيرها ، أو تعيش فى الذكرى فتعمى عن سواها ، تجتر القديم دون أن تستوعب الجديد ، فتصحو الحياة ويتثاءب الشعر خلف الحياة ... أو يتحرك الركب إلى الأمام فيجره الشعر إلى ما وراء الطريق ... وكأن الشعر العربى كائن أعرج ، يتلكأ على هامش الحياة حين يشتد بالنبض قلب الحياة ، ويمتد الطريق فلا يلحق بالركب . . . ويطول السير فيتقاصر عنه ... لم يكن الشعر فى صدر الاسلام كذلك ، فقد نقل إلينا أصداء الحياة .. التى سمعها فى ذلك العصر ، بل عرف كيف ينصت إلى هذه الأصداء ، وكيف ينقل الصور التى رآها بعينيه على طول الطريق ... ولم تكن حركته حركة فى مكانه . . . لا يتعداه بالخطو إلى سواه ... وإنما امتدت حركته مع تقدم الخطوات على طول الطريق وامتداد الحياة .

= دون حاجة إلى أن تتحول هذه المجاراة إلى عملية اندثار للأوضاع القديمة ، فيموت وضع ويقوم وضع ، وتذهب لغة لتحل محلها لغة » . (تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى ص ٧٥ — الطبعة الرابعة — القاهرة / ١٩٧٠) .